اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح١٢ | الآيات [٧٠ : ٧٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

بإذن الله -عزَّ وجل- نستكمِل تفسير سورة الأنعام، كنا قد توقَّفنا عند قول الله -عز وجل- بعد الآية (٧١): {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[الأنعام:٧١] .

توقَّفنا عند شرح الآية (٧١) وبدايات الآية (٧٢)، أهمّ مصطلح كنا توقفنا عنده المرة السابقة، وقلنا هذا المصطلح جاء مخصوصًا في هذا الموضع في القرآن تحديدًا منفردًا، مصطلح مهم جدًا، والإنسان يعوذ بالله أن يتلبَّس به، مصطلح كلمة "حيران" {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ}.

كلمة "حيران" -فيما أذكر- لم تأتِ في القرآن إلا في هذا الموضع، وتدلّ على حالة يتلبَّس بها الإنسان، حالة من عدم اليقين؛ إنسان تائه. هذا الموضع في القرآن له أهمية خاصة للخروج من الحيرة، قبلها جاءت الآيات قبل كلمة "حيران" توضح أهم سبب من أسباب دخول الإنسان في حيرة من أمره... ما الذي يجعل إنسان بعد أن كان في يقين يصبح في حيرة من أمره؟

قول الله -عزَّ وجل- آية (٦٨): {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} ؛ أن تكون هناك مجالس تخوض في الآيات وهو جالس وليس لديه علم، المفترض أن يقوم، تجد أحدهم دخل منتدى من المنتديات، دخل موقعًا من المواقع، عرَّض نفسه للشبهات، ثم جاء يقول: أنقذني أنا لدي شبهة في البخاري، أنا لا أصدق كذا في آية كذا، وتجد أن العوامل التي هي تزيد الإيمان أصلًا -آيات وأحاديث- انقلبت عنده لشبهات بسبب جلوسه في المجالس التي فيها خوض في آيات الله. فالمفروض إن الإنسان عندما يجد نفسه في هذه المجالس يقوم وينتفض فزِعًا، إما يكون عنده قدرة على الرد، وقلنا أيضًا ليس كل أحد يكون عنده قدرة على الرد يجلس، لابد أن يرى الظروف المحيطة، هل الجو جو بحث عن الإيمان وبحث عن الحق؟ أم مجرَّد جدال فقط؟ كما قلنا قبل ذلك في سورة الزخرف: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}[الزخرف: ٥٨] ؛ هناك أحيانًا كلام هو مجرَّد جدال فقط.

من أسباب تجرؤ بعض الناس على دخول مثل هذه المجالس ودخولهم في حيرة وجود بعض من أهل العلم المعروفين فيها ولا يُنكِرون، ولا يُغيّرون!

كما قلنا جاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} نحن فسَّرنا الأقوال في هذه الآية، وقلنا إن أحد الأقوال أن هذا الحُكم نُسخ أو هو على الاستحباب لعامَّة المؤمنين، إنما للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا، وكذلك العلماء؛ أن يجلسوا في مجلس فيه انتقاص من الشرع وانتقاص من الدين ولا يُنكِر، ولا يتحرَّك ولا يقوم ولا ينتفض!!! هذا يجعل الناس تشكّ في الدين، تسمع وتشاهد ولا أحد ينكر ولا يوجه فيدخل الناس في هذه الحيرة من الأمر والشك والشبهات.

إذًا كيف يخرج الإنسان؟ سواء كان على يقين وتعرَّض لمجالس اللغو هذه ودخل في الحيرة من أمره؟ أو هو لايزال باحثًا عن الحق؟

{حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} ؛ اعلم إن الإنسان الحيران لا يُترك؛ هناك ناس تحاول شدّه للهدى وناس تحاول شده للضلال حتى يستقر على أمر منهما في النهاية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كُلُّ النّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أوْ مُوبِقُها)[1]؛ كل واحد -في الغالب- يتديَّن بدين -أيًا كان هذا الدين-، سواءً عَلِم أو لم يعلم، قد يكون عبدًا لهواه وهو لا يشعر، لكنه لا يُترك، ليس هناك شيء اسمه إنسان فارغ، لا؛ الإنسان بداخله شيطان، داخله هوى، داخله شهوات أو دين أو غير ذلك وهو لا يشعر، فليس هناك شيء اسمه "إنسان فارغ".

{لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا}وقلنا على قولين: هناك مَن قالوا إن هؤلاء أصحاب الحق، وهناك مَن قالوا إن هؤلاء يدَّعون أن معهم الحق، الشاهد أنه لن يُترك، الذي يظل حيران لن يُترك، سيجد ناس تشدّه لهذا، وناس تحاول شده لذاك، وهو يجب أن يكون على بيّنة من أمره، الذي يمشي في الدين بغير بينة من أمره في الغالب أي شيء يصيبه بالشك. يجب أن يكون الإنسان على بينة من أمره في هذا الدين.

[1] مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٣ • [صحيح]

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} هو هدى واحد الذي هو هدى ربنا، {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} هذه أكثر إشكالية تكون عند الحيران أنه لا يريد الاستسلام للنصّ، لا يريد الاستسلام للوحي، لا يريد الانقياد للشريعة... في حين أنه يكتسب اليقين عندما يستسلم، إذا اقترب شبرًا يجد نور ذراع، فيمشي في نور الذّراع فيجد نور الباع، ثم يسير في الطريق، فيصبح الطريق بالنسبة له هيّنًا، ثم يهرول في الطريق. لكن مشكلة الإنسان أنه لا يريد أن يستسلم، يريد أن يرى آخر الطريق قبل أن يمشي فيه.

يقول الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ} [الأعراف: ٩٦] هو يقول لربنا: لا، افتح عليّ بركات وأنا أمشي في الطريق!

أي يجب دائمًا أن تكون الخطوة الأولى عليك، {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا} [الكهف:١٤] ؛ هم قاموا أولًا، وربنا يقول: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا} فهم قاموا؛ فقالوا؛ فربط الله على قلوبهم، نحن نقول: لا يا رب، اربط على قلبي وأنا أقوم فأقول كلمة الحق!

فالشبر الأول عليك؛ الخروج من حالة الحيرة هذه لن يأتي لك مَلك من السماء ليخرجك، وكذلك الخروج من أي حالة معيَّنة -من ذنب معيَّن مثلًا- أنت يجب أن تبحث، ولو أن يكون بداخلك مشاعر، حزين، تريد الوصول لربنا.

{وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} وقلنا دائمًا الذي يدخل في هذه الحيرة الكلام معه دائمًا يكون في الأصول، في الاستسلام لله وقضيَّة الصلاة: {وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنعام:٧٢] ؛ الاستسلام لله، الصلاة، الدار الآخرة.

و عندما تكلّمه عن ربنا تكلمه عن الصفة التي لا يُنَازَع فيها؛ صفة الخالِقيَّة، الله -عزَّ وجل- أول ما تعرَّف إلى العباد في كتابه تعرَّف إليهم بهذه الصفة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق:١] ، أول صفة تعرَّف الله -عزَّ وجل- بها إلى الخلق هي صفة الخالقيَّة التي لا يُنازَع فيها.

نحن قلنا دائمًا عندنا التحدي في القرآن بأمرين: {يَخْلُقُوا ذُبَابًا} أو" يأتوا بقرآن"... التحدي بصفة الخَلْق والتحدي بالقرآن الذي هو كلام الله -عزَّ وجل- المعجِز، فهذان التحديان ينقلان الإنسان -كما قلنا- من الإلحاد إلى الإسلام، أي أن التحدي بالخالقيَّة ينقله من الإلحاد إلى إثبات وجود الله، وبعد

إثبات وجود الله... يأتي التساؤل: ما هو الدين الحق؟ الإسلام والقرآن هو الحق، فهذان التَّحديان ينقلان الإنسان من أبعد نقطة إلى داخل دائرة الإسلام.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ}[الأنعام:٧٣] متى {يوم يقول كن فيكون} هذا؟ قيل يوم البعث، وقيل: يوم النَّفخة الأولى عندما يموت كل الناس.

{...ُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} قيل النفخة الأولى عندما تموت الناس كلها {وَلَهُ الْمُلْك يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}[الأنعام:٧٤] أي لا يُنازعه أحد ولو ظاهريًا في الملك، الله -عزَّ وجل- له الملك في كل وقت وحين.. نحن نقول: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[الفاتحة:٣] وفي قراءة: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} الله -عزَّ وجل- يملك كل الأيام، لماذا يوم الدين تحديدًا؟ لأن في هذا اليوم لا يُنازَع فيه، لا أحد يدَّعي الملك، الكل يهرب، الكل يقول: سلِّم سلِّم، لا أحد يقول: أنا لي الملك، بل حتى جلد الإنسان يتبرَّأ منه، حتى يديه ورجليه ولسانه يتبرأون منه، فيقول لهنّ: "تبًا لكنّ عنكنّ كنت أنازع أو أدافع"، في هذا الوقت لا ينازِع الله -عزَّ وجل- في ملكه أحد. وكذلك من الأوقات التي يظهر فيها المُلك واضحًا جليًّا متى؟ {وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} يقول الله -عزَّ وجل-: "أنا المِلك، أنا الديَّان"، الله -عزَّ وجل- ملك الملوك -سبحانه وتعالى- لا يُنازَع، كل الناس ميتة، كل الخَلْق ماتوا... لا يوجد إلا الله -سبحانه وتعالى- في هذه اللحظة، لا يُنازَع -سبحانه وتعالى-.

{وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} صفة العلم، وتكلمنا عنها باستفاضة في قول الله -عزَّ وجل-: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا...}[الأنعام:٥٩] . {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.

بعد ذلك ننتقل إلى القصة العظيمة التي جاءت في هذا الموقع بعد كلمة (حيران) ولها دلالة، قصة سيدنا إبراهيم -عليه السلام-.هذه القصة حقيقةً الواحد كان متهيِّب يدخل سورة الأنعام بسبب وجود هذه القصة!

بالرغم من جمال هذه القصة وروعتها، إلا أنه للأسف هذه الآيات مظلومة جدًا في التفاسير؛ الآيات على ما فيها كما قال الله {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} .

هذه الرحلة الجميلة التي تنقل الإنسان من كلمة {حَيْرَانَ} إلى كلمة {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} ، انظر كيف تنقلك هذه الرحلة مباشرة بعد كلمة {حَيْرَانَ} إلى كلمة {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}، هذه الرحلة التي تأخذك من أول {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} إلى كلمة: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} .

هذه الرحلة التي فيها أقوى ثلاث كلمات لأبي الأنبياء إبراهيم -عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم-: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}، {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}، وسنرى هذه المراحل الثلاثة.

هذه الرحلة العظيمة المليئة بالإيمانيات أقول مظلومة في كثير من كتب التفاسير، لماذا؟

انشغل كثير من المفسرين -فقد قرأت كثيرًا من التفاسير في هذه الآيات- أكثر التفاسير ما يقرب من ٩٨% أو أكثر من التفاسير مشغولة؛ في هذه الآيات هل سيدنا إبراهيم كان ناظرًا يبحث بنفسه عن الحق؟ أم كان مُناظِرًا يناظر قومه؟ أي هل كان هو الباحث عن الحق؟ أم كان يفعل هكذا أمام قومه يستدرجهم أو يجادلهم أو يتنزَّل معهم -التنزُّل مع الخصم- ويفترض معهم افتراضات يُظهر أمامهم إنه يبحث عن الحق حتى يبيّن لهم أن الآلهة التي يعبدونها باطلة؟ فيسمّون هذا مُناظِرًا، مقام المناظرة، فهل كان إبراهيم ناظِرًا أو مناظرًا؟

خلافات رهيبة في التفاسير -وإن كان أغلب المفسّرين اختار أن سيدنا إبراهيم كان مناظرًا لقومه -فلو قلنا كلمة جمهور المفسرين- أنا سأحاول إعطاء ملخَّص سريع وأخرج من هذه الدائرة حتى لا أكون أنا أيضًا قد تلبَّست بهذه الإشكالية، أغلب المفسّرين أو جمهور المفسرين قالوا إن سيدنا إبراهيم كان مناظرًا.

ظاهريًا الذي يقرأ الآيات بلا خلفية يجد الله يقول: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}[الأنعام:٧٦] كلها أن سيدنا إبراهيم كان وحده، يقول: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}، ظاهريًا سيدنا إبراهيم كان وحده.

الذي قال أنه مناظر لقومه؛ هرب من القول إنه كان ناظِرًا لسببين؛ لأنه كيف يمرّ على سيدنا إبراهيم وقت من الأوقات يقول فيه: {هَذَا رَبِّي} على النجم؛ هل هو لا يعرف الله؟! وأن الأنبياء لا يجوز عليهم هذا الكلام حتى قبل النبوة، على رأي جمهور العلماء إن الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة.

كثير من المفسرين كان يضع في اعتباره هذان المبحثان في العقيدة:

المبحث الأول "عصمة الأنبياء"،

المبحث الثاني: "هل الإنسان مُحاسَب بدون رسالة؟ هل الإنسان مُطالب أن يصل بعقله إلى الله –عزَّ وجل– حتى لو لم يأتي وحي أم لا؟"

المسألتان في كتب العقيدة وفيهما استفاضة. لكن أيضًا أُقحِموا في التفسير وانشغل المفسرون بهذه المباحث.

أيضًا من المباحث التي انشغل فيها كثير من المفسّرين: "هل أبو سيدنا إبراهيم كان مؤمنًا أم لا؟ وهل أبو النبي صلى الله عليه وسلم وأمه كانا مؤمنين أم لا؟ وآباء الأنبياء؟ والشيعة رابطين دائمًا الإيمان بالنَّسل "آل البيت" فقالوا: أبو طالب في الجنة، وأبو النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة، وأمه في الجنة، ودخلوا في مباحث طويلة وتأثَّر بهم بعض المفسّرين وكتبوا مباحث في هذا!"

وقد تعجَّبت كثيرًا ما الذي أدخل الآيات في هذه القضايا؟! الآيات مليئة بالإيمان واليقين!

ليس هناك إشكالية أن يتم حل هذا في كتاب عقيدة، لكن الإشكالية أنك تقرأ هذا في التفسير، قد يكون هو غرضه تناول هذه القضايا، في حين أنك تقرأه تريد أن تعيش مع الآية، تريد أن تخرج بمعنى مُعيَّن، تبحث عن المعاني الإيمانية!

((**كلمات الأنبياء** هي أعلى كلمات على وجه التاريخ وهي مليئة بالإيمان، أعلى قلوب على وجه الأرض، أفضل عزائم على وجه الأرض، تتكلم الآن، المفروض دائمًا عندما تجد الأنبياء يتكلمون في القرآن تقف مع هذه الكلمات، هذه الكلمات فيها نور، هذه الكلمات توفّر عليك كتبًا كثيرة مثل

"مدارج السالكين" هذا كلام الأنبياء! كيف يرتقي الأنبياء في الإيمان، كلمات الأنبياء في الدعوة وكلمات الأنبياء في معاملتهم مع الله تُدرَّس، هذه مناهج.))

فنحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل جانبية، لكن كاتب هذه التفاسير تمامًا ككتاب العقيدة يقول: "أنا لست مسؤولًا أن أجعل إيمانك يزداد"، فما هو غرض كتاب العقيدة؟ غرضه أن يضبط ويضع لك حدودًا في العقيدة لكي لا تضل، فإذا عشت في إيمانياتك، وربطت عقائد على قلبك –وهذا معنى عقيدة– لا تربط عقائد خاطئة، عندما تدخل في مباحث التوكل وصفات الله وتعيش مع أسماء الله وصفاته لا تنسب لله شيئًا خطأ، هذا هدف كتب العقيدة.

فأحيانًا يقرأ المسلم كتب العقيدة مُعتقِدًا أن إيمانه سيزيد، لكن لا، فكتاب العقيدة يضع لك حدودًا كي لا تضل فقط، تمامًا مثل أن تكون هناك أرض خالية... كتاب العقيدة ينظفّها لك، ويقول لك: "قم أنت بالبناء".

أما العقيدة التي كانت في قلب سيدنا إبراهيم –عليه السلام– وهو في الهواء قبل أن يسقط في النار وهو يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل"، هذه لن تجدها في كتاب العقيدة، المعاني الإيمانية الخاصة بالتوكل "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله" هذه المعاني ليست في العقيدة، هو يضع لك ضوابط للتوكل، فكذلك كتاب التفسير –لمن اشترط هذا على نفسه– يضع لك ضوابط لفهم الآيات، فعندما تريد أنت أن تعيش بالآيات لا تضل.. واضح!

لذلك هناك فارق بين كتاب مثل "في ظلال القرآن" فهو قال: "أنا سأعيش في ظلال الآيات"، لم يرتبط بأن يُدخل نفسه في هذه المباحث، فبعض الناس لام عليه أنه لم يحل إشكاليات، وهو أصلًا لم يشترط على نفسه هذا. أو أحد يغضب من كتاب تفسير وهو أصلًا لم يشترط على نفسه أنه سيجعله يعيش في الإيمانيات.

فالشاهد هذه الرحلة الإيمانية في هذه الآيات التي ظلمت كثيرًا –أنا طبعًا أميل للاختيار أن سيدنا إبراهيم كان ناظرًا– وهو قول الإمام الطبري ويُنسب لابن خزيمة والإمام الخطابي، وقلة حقيقةً من المفسرين.. لكن جماهير المفسّرين قالوا إن سيدنا إبراهيم كان مناظرًا.

لكن أنا أميل أنه كان وحده ناظرًا... أيًا كان هذا المقام أو التأويل، من يريد أن يعود ليرى دلالات أي من القولين، فالإمام الخازن والإمام الرازي والإمام ابن كثير أكثر ثلاثة اختاروا أنه كان مناظرًا لقومه وأصّلوا تأصيلًا قويًا جدًا.

أما الإمام الطبري وآخرين من المعاصرين وهناك مبحث لطيف حوالي ستين صفحة ملخّص اختار أنه كان ناظرًا، اسمه "شواهد اليقين على استدلال الخليل" لسامي السويلم، ذكر أن الخليل هنا -عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات والسلام- كان ناظرًا... فالشاهد أن من يريد الرجوع للخلاف يقرأ هذا المبحث ويقرأ رد الخازن والرازي وابن كثير وتأصليهم أنه كان مناظرًا.

لكن الشاهد هنا -نعود للدرس- أيًا كان سيدنا إبراهيم ناظِرًا أو مناظِرًا، فقد قال الله سبحانه وتعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}[الأنعام:٧٥]؛ إن رؤية ملكوت السماوات والأرض سواءً منفردًا أو معه أحد تؤدي إلى الوصول إلى اليقين، كيف نصل إلى اليقين؟ هذه هي الإشكالية. هل سيدنا إبراهيم كان معه أحد يعلّمهم؟ ماذا كان يعلمهم؟ هذه هي الإشكالية التي انشغل عنها كثير من التفاسير، قالوا إنه كان مناظرًا، والسؤال هنا ماذا كان يريد من المناظرة؟ أو كيف وصل بهم تدريجيًا أن يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}؟ ما هي دلالات كلمات سيدنا إبراهيم: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}، {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} ما دلالات هذه الجمل الثلاثة؟

أيًا كان سيدنا إبراهيم قال هذا الكلام -سواء قاله وحده أو بغرض أن الناس تتعلمه- ما دلالات هذا الكلام؟ لا تفرق ناظرًا كان أم مناظرًا، وهذا ما نريد نحن أن نقف عنده كي نخرج من هذه الإشكالية. فأيًا كان سيدنا إبراهيم -عليه السلام- كان ناظرًا أو مناظرًا، فقد قال الله تعالى: {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} وذكر تعالى كلمات معيّنة سيدنا إبراهيم.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الأنعام:٧٤]؛ سنجد هنا الفارق ما بين الأصنام وعبادة الكواكب.

من قال إن إبراهيم كان مناظرًا قال إن قومه كانوا يعبدون الكواكب فلذلك قال لهم إبراهيم :أن النجم لا يمكن أن يكون إلهًا، والشمس لا يمكن أن تكون إلهًا، والقمر لا يمكن أن يكون إلهًا.

ولكنه قال أولًا: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} لذلك بعض المفسّرين أنكر أن قومه كانوا يعبدون الكواكب.

إذًا في الآيات هناك مرحلتين:

مرحلة كلمة "آلهة"... ومرحلة كلمة "هذا ربي".

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} سيدنا إبراهيم يتكلم هنا عن الآلهة؛ أن هذه الأصنام لا يمكن أن تكون آلهة، لا يمكن أن تُقدِّم لها العبادة.

وقال أيضًا {هذا ربي}: البحث عن الرب الخالق، هناك فارق بين الآلهة والرب، وسوف نتكلم في هذا الكلام.

الشاهد نحن بداية نريد أن نذكر هذه الفروقات.

الفرق الثاني: بين {إِنِّي أَرَاكَ} هو –سيدنا إبراهيم– يرى، وبين {وَكَذَلِكَ نُرِي} ربنا أراه، بالتالي فإن الشبر الأول عليك؛ سيدنا إبراهيم بدأ الشبر الأول وتساءل، هذا هو أهم خُلق في سيدنا إبراهيم؛

خلق التساؤل، حكى عنه القرآن تساؤله {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} وعندما يتكلم مع قومه تجد سيدنا إبراهيم يُكثر من التساؤلات.

مثل ما قلنا سابقًا في آيات سورة الصافات: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟

نصف صفحة فيها ست أو سبع أسئلة، هذه الأسئلة في الجو المليء بركود فكري وتقاليد الآباء مستمرة؛ يرمي لهم حجرًا في البركة الراكدة! ويقول لهم: أفيقوا! فكّروا!

لماذا لا تفكرون؟ هل يمكن أن تكون هذه آلهة؟؟ سوف أحطمه وهو كما هو لا يتحرك ولا يدافع عن نفسه، هل يمكن أن يكون هذا ربًا؟!...

وهنا في سورة الأنعام؛ فلما أفل قال: لا يمكن أن يكون ربًا، ما بعده، هل يمكن أن يكون ربًا؟ أفل، لا، لا يمكن أن يكون ربًا ثم ما بعده، هل يمكن أن تكون ربًا؟ لا، هذه أفلت، لا يمكن أن تكون ربًا.

تجد هذا الخُلق –خلق التساؤل– مستمرًا مع سيدنا إبراهيم كما قال تعالى عنه في سورة البقرة {وَإِذ قالَ إِبراهيمُ رَبِّ أَرِني كَيفَ تُحيِي الموتى} هذا الخلق مستمر مع سيدنا إبراهيم لأعلى درجات اليقين.

وحتى بعدما حاجّ قومه، تجد الآيات كلها أسئلة قال: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ}؟ ثم بعدها {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ}؟ لا يعطي جمل خبريَّة، بل جمل استفهامية، يريد منهم مشاركته في التفكير. كان من الممكن أن يقول لهم: "الفريق الأحق بالأمن هو الفريق المؤمن"، لكنه لم يعرضها هكذا، بل سأل، إذا كان هناك أناس مشركة بالله وآخرين موحدين {فأي الفريقين أحق بالأمن}؟!

كل حوارات سيدنا إبراهيم لقومه هي تساؤلات يريد أن يُفيقهم، يرُجُّهم، يهزّهم، أفيقوا من الركود والتقاليد التي انغمستم فيها! وهذا أهم شيء تعمله في مجتمع راكد ومنغمس في تقاليد الآباء والأجداد.

نضرب مثلًا... تجد مثلًا رجلًا يشجع فريقًا كرويًا معينًا منذ عشرين سنة، ودائمًا ما يغضب ويبكي مع هزيمة فريقه وتتوالى الهزائم ولازال يشجعه! ألا يقف ويسأل نفسه: لماذا أنا أشجع هذا الفريق؟! هل أنا وُلدت وجدت نفسي هكذا؟! ولماذا هذا الآخر يشجع فريقًا منتصرًا دائمًا؟ كيف يصبح الإنسان مشجعًا لهذا أو ذاك؟! هل يقدم بطاقة عضوية في مكان ما؟ هل يقدّم أوراقًا معينة؟ ثم تجد إذا انتقل من تشجيع فريقه إلى تشجيع فريق آخر يقول الناس عليه أنه نذل، لماذا يكون نذلًا؟!

ألا يقف مع نفسه ليصحح المسار!

ولله المثل الأعلى؛ كثير من العقائد والأفكار المنتشرة هو لا يسأل نفسه لماذا هو يعتنقها، هو وجد الناس هكذا، تمامًا مثل عقيدة "الشبشب (المقصود الحذاء) المقلوب"! هذا حرام، لماذا هو حرام؟ لا أعرف! أنا بحثت بالموضوع فعلًا لعلي أجد أصل الحكاية، وتجد أناسًا ربما لا يصلون لله ويقولون: إن الشبشب المقلوب حرام، وتجده ينتفض عندما يرى شبشبًا مقلوبًا... فعلًا!

رأيت ذلك بنفسي أحدهم كان يلبس ذهبًا،

رأى " شبشب مقلوب" وكان يحمل أشياء ثقيلة... توقف ونزل الأشياء التي يحملها حتى يصحح وضع الشبشب، أما كان أولى به أن يُصلي وألا يلبس ذهبًا!

فالشاهد ماذا نريد أن نقول؟ عقيدة أن تتساءل ما هو الدليل على ذلك؟ عندما يكون المجتمع غلب عليه التَّقليد، وعقائد معيَّنة سواء وطنية أو قومية. هذه التساؤلات -عندما يوجد بحر الركود هذا- كان لزامًا أن يهتزّ، لا بد للإنسان هنا أن يبدأ يسألهم؟ {فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}؟

فسيدنا إبراهيم يسأله {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً}؟ كيف جعلت الأصنام آلهة؟! أنت تعرف أنها أصنام، وأنت من صنعتها، هل يمكن للإله أن يُصنع؟! إذًا يمكنني أنا أيضًا أن أصنع آلهة!!! لهذا قال له: {إِنِّي أَرَاكَ} شيء في منتهى الوضوح... هذه رؤية علمية يقينية بصريَّة واضحة {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}

لما كسر سيدنا إبراهيم هذا التَّقليد، أراه الله سبحانه وتعالى ملكوت السماوات والأرض، بعدها مباشرة : {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ}، كان لزامًا على إبراهيم أن يأخذ الشِّبر الأول. لماذا أراه الله دون باقي قومه؟ لأنهم رفضوا أن يكسروا التقليد، الباقين رفضوا أن يسألوا، رفض أن يقف مع نفسه وقفة... وسيدنا إبراهيم رآهم على ضلال فتوقف وتساءل.

كثير من الناس يعرف أنه إذا وقف مع نفسه وقفة سوف يتغيَّر، لكنه لا يريد أن يقفها! إذا وقف وسأل نفسه أسئلة كثيرة هو يعلم أنه سيتغير، بمعنى أنه إذا توقف في أشياء كثيرة، هو يعلم أنه إذا سأل نفسه عن حكمها سيتركها، أو على الأقل ضميره سيؤنبه، لأنه يعلم أنها حرام، فرفض أن يسأل!

هو يعتقد أن هروبه من السؤال يعني أنه أراح ضميره، أبدًا؛ السؤال سيظل وراءك إلى يوم القيامة، إلى>> {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ}. كثيرًا امرأة تسوّف في ارتداء الحجاب لا تريد أن تأخذ القرار، أو رجل لا يريد أن يأخذ قرار في الإقلاع عن معصية أو في معاملة مالية معينة أو غيره، هو يهرب، هو يعرف أنه لو وقف مع نفسه سيفكر... لكنه لا يريد أن يسمع.

تمامًا كالذي لا يريد أن يسمع عن الموت، لا، لا تتكلم عن الموت! هل معنى أني لا أتكلم عن الموت أنك لن تموت؟! أو أنك لن تُبعث؟ أو لن تُسأل؟!!

فأنت دورك هنا مثلما قلنا؛ إن السورة مليئة بكلمة {قُل} قذائف تُفيق الإنسان، تخرجه من هذه الحيرة، هذه القذائف المستمرة معنا طوال السورة؛ قلنا إن أكثر من أربعين مرة وردت في السورة كلمة {قل} دلائل توحيد وآيات بينات، لأنهم يهربون من هذه الآيات.

إذًا، وجود هذه القصة في سياق سورة الأنعام ما دلالته؟ إن المجتمع المكي الذي نشأ على عبادة الأصنام وتقليد الآباء، هذه القصة تأتي لتفيقهم، ألا تتبعون سيدنا إبراهيم وتطوفون حول الكعبة، وتستفيدون اقتصاديًا من الكعبة التي بناها إبراهيم!.. إذًا انظروا سيدنا إبراهيم ماذا كان يفعل؟ انظروا سيدنا إبراهيم كيف كان يسأل؟ انظروا سيدنا إبراهيم ماذا قال لقومه؟ هذه النقطة الأولى.

النقطة الثانية: أن هذا طريق الخروج من الحيرة {حيران} ولم أعد أعرف أين طريق الحق... إذًا انظر في ملكوت السماوات والأرض وأنت توقِن أن لهذا الكون إلهًا خالقًا واحدًا. تأمل التناسق الرهيب في الكون {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}؟ هذا التَّناسق الموجود في الكون، هذا الإبداع المبهِر الموجود في ملكوت السماوات والأرض لتوقِن أن لهذا الكون إلهًا واحدًا.. الخروج من الحيرة.

إذًا المعاني في قصة سيدنا إبراهيم هنا :

١. كسر التقليد
٢. الخروج من الحيرة
٣. هذا الملكوت مليء بالآيات... أنتم من بداية السورة تقولون: نريد آية! نريد آية! {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، مصرّون على طلب الآيات، ويأتيكم بالقرآن لا يعجبكم! ربنا أتى لهم بنموذج للوصول للحق بأبسط الآيات، أيها المتعنّتون في طلب الآيات هذا نموذج للوصول، سواء كان سيدنا ابراهيم سيصل وحده، أو يسعى ليوصّل قومه ويرفضون.

أيًا كان ناظرًا أو مناظرًا، يبحث عن العلم أو يُعلِّم، أيًا كان سيدنا إبراهيم كان باحثًا أو معلمًا، طريق الخروج من الحيرة إلى اليقين لا يحتاج كتابًا في قرطاس ينزل، أو مَلَكًا في صورة رجل، لا لا، يحتاج أن تنظر فقط للشمس للقمر للنجوم! فقط؟ نعم، فقط.

هذا الباحث عن الحق الحقيقي، الباحث عن الحق سيصل بأبسط الآيات، سورة واحدة توصّله، آية واحدة من القرآن توصّله، هذا الباحث عن الحق فعلًا، وكم من أُناس باحثين عن الحق هُدوا بأبسط الكلمات، وآيات بسيطة من القرآن أثّرت فيهم.

إذًا لماذا هذه القصة؟ هذا المقطع لسيدنا إبراهيم لم يأتِ في القرآن كله غير في سورة الأنعام؟ فلماذا هذا الجزء من قصة إبراهيم يأتي في سورة الأنعام؟

مثلما قلنا؛ هذه الأشياء الثلاثة؛ الخروج من الحيرة -وهذا الربط بالآيات التي قبلها مباشرة-، كسر التقاليد، وثالثًا الوصول بأبسط الآيات، الناس المتعنتة من أول السورة: نريد آية، نريد آية، هذا سبيل الوصول بأبسط الآيات، سيدنا إبراهيم مجرَّد تأمله في قمر وشمس ونجم؛ قال في آخر الآيات: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}!

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} قلنا أسلوب التَّساؤلات مفيد جدًا عندما تجد قومًا سائد عليهم الركود الفكري فتسأله لتفيقه، هل لهذا الكون إله؟! هذا الإله نزَّل رسالة للأرض أم تركهم عبثًا؟! تسألهم، تهزهم، تفيقهم، أنت من يهجم، أنت من يسأل، وأحيانًا تسأل السؤال وأنت من

يجيب، مثلما ورد كثيرًا معنا في السورة، {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ}، {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ... الَّذِينَ آمَنُوا}، أي أنت أيضًا من يسأل وأنت الذي تستبِق الإجابة.

وكما قلنا {إِنِّي أَرَاكَ} الآية التي بعدها مباشرة {وَكَذَلِكَ نُرِي}، الشبر الأول منك، كما قال تعالى {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا} أنت تقوم، ربنا يربط على قلبك، أنت يجب أن تقوم، أنت يجب أن تتحرك، أنت يجب أن تخرج من حالة الحيرة هذه، أنت من يتعب حتى يُبَصِّرك الله.

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ} مثلما ربنا أراه الباطل باطلًا {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} هنا يُريه الله الحق حقًا، "اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه".

التَّخلية قبل التَّحلية {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ}[البقرة: ٢٥٦]، ربنا أخبر أولًا {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}؛ لما أراه الله -عزَّ وجل- الباطل باطلًا، رأى أن هؤلاء في ضلال مبين، نقله إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

إذًا، انتبه لكلمة {وَكَذَلِكَ نُرِي} هذه، أجمل شيء إنك تصل لمرحلة: (وكنتُ بصره الذي يبصر به..)[٢] يا الله!!! هذه ولاية الله (وكنتُ بصره الذي يبصر به) عندما يتولاك ربنا ويكون الله -عزَّ وجل- هو بصرك الذي تُبصر به، وسمعك الذي تسمع به!!!

من الممكن أشياء بسيطة ترفع إيمانك جدًا، ممكن رؤية الشروق ترفع إيمانك، ممكن رؤية الغروب ترفع إيمانك، معلومات كثيرة جدًا نحن نعرفها، عندما تقولها لغيرك تُفاجَأ إنه ممكن يبكي من خشية الله! ولكن هذه المعلومات أنا أعرفها!!!

[٢] لا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أحبَّهُ فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الَّذي يسمعُ بِهِ وبصرَهُ الَّذي يبصرُ بِهِ ويدَهُ الَّتي يبطشُ بِها ورجلَهُ الَّتي يمشي بِها فبي يسمعُ وبي يُبصِرُ وبي يبطِشُ وبي يمشي ولئِن سألَني لأعطينَّهُ ولئِن استعاذني لأعيذنَّهُ وما ترَدَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُهُ ترَدُّدي عن قبضِ نفسِ عبدي المؤمنِ يكرَهُ الموتَ وأنا أكرَهُ مساءتَهُ ولا بدَّ لَهُ منْهُ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، مجموع الفتاوى ٥٨/١٠ • صحيح •

تأتي وتخبره بمعلومات مثلًا في جسم الإنسان، أو في خلق السماوات والأرض، أو في البكتيريا والفيروسات، أو في الأرض أو في الزرع أي شيء في خلق الله ، ممكن واحد يسمع منك معلومة بسيطة تجده تفيض عيناه من الدمع، يا الله! أنت تعرف هذه المعلومة أصلًا ولم تؤثر فيك! هنا ربنا أراه إياها، هنا سمعها (كنت سمعه الذي يسمع به)، هنا رآها (وكنت بصره الذي يبصر به).

إذًا، أحيانًا كثيرة تنظر نظرة إيمان {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ}[الصافات:٨٨]، أحيانًا تنظر في السماوات والأرض فيفتح الله -عزَّ وجل- عليك.

الإنسان -يا جماعة- محتاج مثلما يتدبَّر في القرآن يتدبر في الكون، فعلًا خلق السماوات والأرض مُبهر يُوصّل لليقين قطعًا مثل ما ربنا قال: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ} ماذا؟ {مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

إذًا رحلة الوصول لليقين لا بد لها من التدبر في خلق السماوات والأرض، ما هي الأرض؟ والشمس؟ والقمر؟ وهذا جزء بسيط من مجموعة شمسية من ٩ أو ١٠ كواكب، وكم هناك من مجموعة! لا أعرف ٢٠٠ مليون مجموعة شمسية في وسط مجرة وسط عدة ملايين أو مليار مجرّة! وكل هذا في الكون المنظور! كيف وأن الكون يتَّسع، وكيف أن الكون كله ينمو؛ الطفل ينمو، النبتة تنمو، الحيوان ينمو، الكون يكبر، كل هذا يلفّ، وكل هذا يتحرك، وكل هذا يحتاج لربنا في كل لحظة!

وكيف أن الله -عزَّ وجل- إذا ترك السماوات والأرض {إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}[فاطر:٤١]، كيف أن رب العالمين في أول كلمة في القرآن {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[الفاتحة:١] أي أنَّ العالمين محتاجون لربهم في كل لحظة، العالم يربو، يربو أي ينمو، فما دام يربو يحتاج إلى رب، من مع العالمين في كل لحظة نمو؟ الله -عزَّ وجل-، هذا الكون يحتاج إلى الله في كل لحظة، كل لحظة نمو تحتاج لربنا.

لذلك سيدنا إبراهيم قال: لا ينفع إن إلهي يتركني ويذهب، أنا أحتاج الإله في كل لحظة {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} سيتركني ويذهب! كيف سأعيش حياتي من غير إله؟! -هذه اللحظات التي يغيب عنّي- كيف أعيش من غير إله؟!

إذًا هذا الكون عندما تتدبَّر فيه؛ من أكبر شيء لأصغر شيء تجد عظمة ودقة متناهية.

تعال انظر الفيروسات، فيروس الإيدز؛ انظر كيف أن الله –عزَّ وجل– ممكن يسلِّط شيء لا يُرى بالعين المجرَّدة، سبحان الله هذا الفيروس! كان أحد الأساتذة وهو يُدَرس لنا هذا المرض، فيقول: هذا الفيروس لكي يدخل جسم الإنسان؛ خلايا الإنسان تصنع مستقبِلات حتى تستطيع أن تستقبله، إذا هذا المستقبِل غير موجود الفيروس لن يستطيع أن يدخل، أي ربنا مجهزّك –مثل سلاح جاهز على الضرب– أنت جاهز للاستقبال، انظر إلى أي درجة أنت ضعيف!!! أنت لا يمكنك تغيّير هذا في خليّتك، وهذا المستقبِل إذا لم يكن موجود على خليتك لن يدخل الفيروس.

أي أن الخلية عليها مستقبِل معيَّن، هذا المستقبل عندما يأتي فيروس الإيدز إذا لم يجده لا يستطيع الدخول، إذا ما وجده يدخل الخلية، هذا المستقبل موجود بخلايانا، ربنا خلقه هكذا منتظر هذا الفيروس، تخيل! ربنا يعافينا. ولن تستطيع أن تتخلّص منه، هم يفكّرون في علاج، كيف يغلقون هذا حتى لا يستطيع أن يدخل الخلية، انظر إلى أي مدى أنت ضعيف! أبسط شيء يوضح لك كم أنت ضعيف!

إذا تفكّرت في ملكوت السماوات والأرض؛ نقطة دم تتجلَّط في شريان من شرايين المخ، يوجد أماكن في المخ الجراحات لا تستطيع أن تصل لها! جزء كبير من جسدك العلماء، أهل الأرض كلهم لا يعلمون عنها شيء، يقول لك: "**unknown**" غير معروفة!

هذا الملكوت هل أتى هكذا؟! هذه الدقة وهذا الإتقان وهذه العظمة بلا موجد لها! بلا خالق!!! الإنسان يجب أن يتوقف و يفكر كيف أتت؟

هل من المعقول وأنت تمشي على شاطئ أو في أي مكان تجد طاولة وأكل ومشروب غازي، فتقول: هذه أتت لوحدها! هكذا فجأة!!

قل لي كيف أتت هكذا؟! هل هذا ممكن! فالإنسان عليه أن يقف فقط ويسأل نفسه.

عندما يسبّح الإنسان بحمد الله يبدأ يطمئن، هذا الكون الواسع، الله –عزَّ وجل– يدبّره، الله –عزَّ وجل– مثلما ذكرنا {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا}[الأنعام:٥٩] ، الإنسان يطمئن، كلما تدبر في الكون أكثر كل ما اطمأن.

فعلًا كثرة رؤية آيات الله في الكون إما تجعلك تفقد عقلك وتُجَن، وإما تجعلك تسجد! مثلما أحد علماء الفلك قال، إمَّا يذهب عقلك- تُجَن- وإما تسجد لعظمة الله -سبحانه وتعالى-.عظمة فوق تحمل العقل البشري، أرقام فوق ضغط التَّحمُّل العقلي البشري، الأرقام في مجال الفلك وهذه الأشياء، سواء الكبر المتناهي أو الصِغر المتناهي، شيء فوق تصور العقل البشري أصلًا. ثم تجد من يقول: لا لا وينكر كل هذا، هو قاس الإله -جل وعلا- على عقله، يقول: لا، لا يوجد إله يحيط بكل هذه الأرقام، فأكيد لا يوجد إله! سبحان الله! هذا لأنك لست إله! الإله فوق البشر!

فيجب أن تعطي لنفسك مساحة وفرصة لتنظر في ملكوت السماوات والأرض حتى تصل لليقين {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} .

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي}[الأنعام:٧٦] كيف رأى ملكوت السماوات والأرض؟

أيًا كان... تنزُّلًا مع قومه -مناظرًا-، أو هو يسأل نفسه -ناظرًا-.

أو أن هذه كانت مرحلة مر بها سيدنا إبراهيم... هو يقول: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي} فالمفسرون قالوا: كيف يقول: {هَذَا رَبِّي} ويقول: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي} ؟

فبعضهم قال: هذه مثل المرحلة التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب فيها للغار؛ هو يعلم أنَّ لهذا الكون ربًا، لكن هو لا يعلم التفاصيل، وهذا شيء يضغط على صدر الإنسان. وهذا أحد معاني قول الله -عزَّ وجل-: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ}، وِزرك: أي الحمل الثقيل.. ما هو؟ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت تتوق نفسه للفهم، كان يتمنى أن يعلم؛ من خالق هذا الكون؟ ما صفاته؟ ما أسماؤه؟ ما مراد الله من خلق هذا الملكوت؟ كان هذا حِملًا يضغط على صدره، فربنا يقول نحن رفعنا هذا الحمل الثقيل عنك وعرَّفناك.

فبعض العلماء قالوا: هذه هي نفس المرحلة التي مر بها سيدنا إبراهيم... قالوا: كانت مرحلة "لا شرك ولا إيمان"...هو لا يعلم تفاصيل الإله، لكنه يعلم أن هذه الآلهة -الأصنام- لا تنفع، لكن من الخالق؟ أين هو؟ ما هي صفاته؟ كيف خَلَق؟ هذه الأشياء لم يكن يعلمها، وهذه الأشياء لا تُعْلم قطعًا إلا بوحي، فسيدنا إبراهيم قال: {هَذَا رَبِّي} أيًا كان قالها تساؤلًا، أو استنكارًا، أو هذا يمكن أن يكون إلهًا،

أو هذا لا يمكن، أو يُجاري قومه... { فَلَمَّا أَفَلَ قال لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، أول كلمة قالها في رحلة الوصول إلى اليقين.

نريد أن نقف مع الجُمل الثلاث التي قالها سيدنا إبراهيم في رحلة اليقين، أول جملة {قال لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، الأفول قالوا: ليس فقط الغروب؛ لا... بل هذا شيء كان قريبًا منك وذهب عنك، لذلك يسمون ابن الناقة الذي هو "الفصيل" الذي انفصل عنها وفطم عنها، يسمونه "أفيل" أيضًا، أي أنه أفل عنها، كان مرتبطًا بها وأفل عنها، وهذا شيء يكون شاقًا على القلب؛ لذلك الفصيل عندما يبتعد ويأفُل عنها تخرج منه أصوات -رغاء- كأنه شوق وحنين إلى أمه فيقولون أَلِه الفصيل إلى أمه؛ الابن الصغير اشتاق إلى أمه شوقًا لم يعد يستطيع أن يتحمل، لو تجاوز هذه المرحلة يكون قد فُطِم.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام لما نظر للكوكب سواء كان هو يبحث عن إله أو يُعرّف قومه، فلما تركه وذهب، إذًا أنت لمن ستتركني؟! شعور الوِحدة شعور قاتل، أنا لا أعلم كيف يعيش الملحد! كيف يعيش وسط الصراعات الاقتصادية والأمراض؟ كيف يعيش بدون إله؟! الأم الملحدة هذه لما ابنها يَمرض ماذا تفعل؟ إذا كان في منتصف البحر والأمواج تتضارب؟ المشركين يقولون: "يا رب" لأن الفطرة تستيقظ، الملحد ماذا يفعل؟! فعلًا ، {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ! فعلًا الحمد لله أننا لنا رب هو رب العالمين... "أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله" أننا نعرف أن الملك لله وحده، الحمد لله.

فلما رآه سيدنا إبراهيم عليه السلام قد أفل قال: {لَا أُحِبُّ} انتبه لكلمة {أُحِبُّ}...

العلاقة بين الإنسان وربه ليست علاقة بين السيد والعبد، ليست علاقة بين الأب والابن، ليست العلاقة بين الزوج والزوجة، ليست العلاقة بين الأم وابنها، علاقة لا توصف، علاقة بين الرب والعبد!

حين تقرأ {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فتاب عليه...}[البقرة: ٣٧] آية رائعة! ربنا قال لسيدنا آدم عليه السلام: اسكن الجنة وأكرمه وأسْجَد له الملائكة، وقال له: لا تقترب من الشجرة، وسيدنا آدم عليه السلام هو الذي أفسد العلاقة. كالشخص أحيانًا ربنا يكرمه، ويدخله المسجد ويعرِّفه ويجعله يصلي قيام ليل، ويجعله يبكي، ثم يخرج بعد رمضان هو الذي يفسد العلاقة بينه وبين ربنا!

لما تفسد هذه العلاقة يعيش الإنسان في حالة من التوتر لا توصف، الإنسان المؤمن لما علاقته بربنا تفسد يعيش مرحلة من التوتر الشديد، ربنا وصفها في القرآن بكلمة {فَتَلَقَّى} تلقى هذه تعني شخص جالس

هكذا -فاتح يديه- منتظر شيئًا ينزل، لا يعرف كيف يعيش حياته وهو بعيد عن ربنا، شيء لا يوصف! شيء فوق الاحتمال إن إنسان مؤمن يكون له علاقة بربنا ويُفسد العلاقة مع ربنا بذنب فتجده جالسًا متوترًا لا يعرف كيف تستمر به الحياة، فتجده منتظرًا هذه [[مرحلة التلقي]]، منتظرًا نزول الرحمات؛ هذه كانت حالة سيدنا آدم عليه السلام كلمة {فَتَلَقَّى} ، هذا الشوق! يتمنى أن تعود العلاقة... فربنا برحمته يدله كيف تعود هذه العلاقة! العلاقة التي أنت أفسدتها الله يُعرِّفك كيف ترجع، يُعلمك كلمات تعود بها هذه العلاقة مرة أخرى، {وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}[آل عمران: ١٣٥] ؟!

فالإنسان المذنب أجمل لحظات حياته إنه يكتشف طريق العودة، هذه هي {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فتاب عليه}

فلحظات البُعد لحظات قاسية، فلما تركه النجم وأفل قال له: إلى أين أنت ذاهب؟؟ لا يصلح؛ أنا أريد إله أحبه ولا يتركني {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} ستتركني وتذهب إلى أين؟!

لذلك أنت من الأذكار التي تقولها قبل أن تنام آية الكرسيّ، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ..}[البقرة: ٢٥٥] أنت تريد إلهًا عندما تنام هو لا ينام، أنت تريد أنت تحتاج لإله هكذا، أنت ضعفك وفطرتك تحتاج إلى هذا.

تحتاج ربًا وأنت مسافر تقول له: "يا رب أنت الصاحب في السفر"، وفي نفس الوقت: "والخليفة في الأهل"، في نفس الوقت... أنت محتاج لإله له هذه الصفات... لا يصلح لهذه لا شمس ولا قمر ، فقط رب العالمين -سبحانه وتعالى-.

لذلك قال: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} الإله لا يصلح أن يأفُل ويتركني، كيف لإلهي أن يغيب عني لحظات؟؟ الإنسان قد يمر بلحظات -ربنا يحفظنا جميعًا- على طريق سريع غفوت لحظة، هذه اللحظة لو لم يكن معك فيها ربنا قد تضيع! لحظة دخول الميكروب جسمك، لحظة أن انزلقت رجلك، لحظة وأنت تعبر الطريق، لحظة الولادة، لحظة الحيوان المنوي وهو يُلقِّح البويضة.. هذه اللحظات ما أكثرها في حياة الإنسان، أنت محتاج لربنا في كل لحظة.

لذلك قالوا: الأصل أن الإنسان يعيش محاطًا بالمخاطر {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}[الرعد: ١١] الأصل أنك محاط بما يؤذيك وربنا يحميك، فإذا قدر الله لشيء أن يصلك يزيل تلك الحواجز -الحفظة-، ليس الأصل أنك أنت تعيش وتسير في أمان فلما ربنا يريد بك قدرًا تُرسل عليك فتصيبك، لا؛ بل الأصل أنك أنت مُحاط بالمهالك من كل جهة، هذا الأصل، بمعنى أنك محاط بالمهالك من كل جهاتك، وربنا يحفظك {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، لذلك {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ} عندما يريد ربنا أن يرفع المعقِّبات فيأتي الإنسان ما يقدره.

{لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} فرضًا لو الإله تركني وأفل وأنا في لحظة من اللحظات الحرجة في حياتي؟؟ لا... أنا أريد إله لا يتركني، أنا أحتاج إلى إله لا يغفل لحظة، {وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..}[فاطر: ٤١]

والأثر المشهور الموجود في آية الكرسي -وإن كان بعض العلماء ضعّفه- سألوا سيدنا موسى قالوا: هل ينام ربك؟ فقال الله -عزَّ وجل- لموسى: سألوك هل ينام ربك، قم يا موسى وأمسك قارورتين من الزجاج، فظل يمسكهما سيدنا موسى فترة طويلة فلما غفل اصطدموا ببعض فانكسروا، فقال كذلك السماوات والأرض بيد الله -سبحانه وتعالى-، ولله المثل الأعلى.

ففعلًا الكون كله محفوظ بحفظ الله -عزَّ وجل- لا يغفل سبحانه لحظة عن الكون، {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}

إذًا أول مرحلة من مراحل التدبر: أن تُخرج من قلبك كل شيء، ما الذي يأفُل؟ الدنيا كلها تأفُل، السيارات تأفل، والأموال تأفل، والمناصب تأفل، والمراكز المادية والمعنوية، كل شيء يأفل!

إذًا أول خطوة من خطوات الوصول في الطريق إلى الله وإلى اليقين:

أولًا: أخرج كل شيء من قلبك... كل ما يأفل لا أريده، لن أرتبط به... أنا سأعتمد على أرقام معي في الهاتف؟! فلو فرضًا الهاتف فُقد أو أصحابها ماتوا.. ربنا يقول: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}[الفرقان: ٥٨] ربنا يعلّمك أن الذي تتوكل عليه لابد أن يكون حيًا لا يموت... افرض توكلت

على حي ثم مات؟ لكن الله هو الحي الذي لا يموت {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} -سبحانه وتعالى-.

إذًا الامر الأول في الطريق إلى الله: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} ؛ أخرج الدنيا كلها من قلبك، التَّخلية أولًا، فإذا دخلت معرفة الله قلبك يكون قلبك خاليًا، نحن مشكلتنا أنك لا تعرف أن تتوكل على الله! تجد رقم شخص في ذهنك تحفظه، وفلان الذي تعرفه، ومركز كذا وكذا، كل هذه أشياء تحول بينك وبين التوكل. لذلك أنت يوميًا لكي تحاول أن تخرّج هذه الأسباب من قلبك تقول: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)[٣] ، مائة مرة تستمر تعلّم نفسك أنه لا يوجد غير ربنا.. لا يوجد غير ربنا.. مائة مرة تخيَّل! تظل تعلّم نفسك هذه المعلومة البسيطة السهلة تقول مائة مرة: (لا إله إلا الله وحده..).

إذًا أخرج كل الدنيا من قبلك، أخرج كل الناس، اجعل عندك يأسًا مما في أيدي الناس، لن ينفعك أحد، "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك".. {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}

ثانيًا:- {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}[الأنعام:٧٧] قمة الافتقار، هو ليس عنده شيء في قلبه، لم يعد متوكلًا على شيء، لم يعد منتظرًا لأي شيء من أي أحد.

لذلك من المعاني الجميلة وأنت ذاهب تطلب العلم تتذكر حديث، (يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه)..[٤] ربنا يقول على الناس كلها سواء كانوا علماء أو متعلمين: (كلكم ضال إلا من هديتُه)! قمة

---

[٣] [عن أبي هريرة:] مَن قالَ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ، وَهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ في يومٍ مائةَ مرَّةٍ، كانَ لَهُ عدلَ عَشرِ رقابٍ، وَكُتبت لَهُ مائةُ حسنةٍ، ومُحيَت عنهُ مائةُ سيِّئةٍ، وَكانَ لَهُ حِرزًا منَ الشَّيطانِ يومَهُ ذلِكَ حتّى يُمسيَ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضَلَ مِمّا جاءَ بِهِ إلّا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلِكَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترمذي ٣٤٦٨ • صحيح

[٤] [عن أبي ذر الغفاري:] عَنِ النبيِّ ﷺ، فيما رَوى عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى أنَّهُ قالَ: يا عِبادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا، يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إلّا مَن هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ، إلّا مَن أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا

التوكل، أنت ذاهب لتتعلم وتعرف أنه لن يعلمك إلا هو سبحانه وتعالى {سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}[البقرة:٣٢] ، {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا}[النور:٢١] تستشعر هذه الأشياء المنفيَّة إلا عن الله، ربنا فقط الذي يزكّي، ربنا فقط الذي يعلّم، {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[الأنبياء:٧٩] ربنا الذي يُفهِّم.

عليك أن تُخرج من قلبك كل شيء سوى الله، عندما تعرف أن تقول: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} ، ستقول: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}.. لكن ما دمت أنت لا تزال تحب جزءًا من الآفلين ستظل لا تعرف أن تقول: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}... لن تحقق قمة الافتقار بدون أن تستغني أولًا عن الدنيا والناس والمناصب، قمة الافتقار هذه مرحلة بعد مرحلة قمة الافتقار، هذه هي المدارِج، هذه الدرجات التي ترتفع فيها، إنك أولًا تُحقق {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} ، بعدها يأتي {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}.. ليس لك غيره سبحانه وتعالى.

لذلك من المعاني الجميلة جدًا في آيات سورة البقرة في قول الله –عزَّ وجل– في آيات الصيام: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي}[البقرة:١٨٦] ، لماذا هذه الآية جاءت وسط آيات الصيام؟ لما ترك الدنيا وارتبط بالقرآن {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}[البقرة:١٨٥] لما قرأ القرآن وابتعد عن الشهوات ولم يعد يشغل نفسه بالأكل والشرب، بدأ يسأل عن ربنا، {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي} ؟ ليس عن أي شيء آخر، ليس عن أحكام مثلًا، لكن عن ربنا مباشرة.. متى؟ لما بَعُد عن الشهوات، الإنسان لما يبتعد عن الشهوات يبدأ يركز، يبدأ {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} يبدأ يسأل عن ربنا، لأن هذه الأشياء كانت حواجز تمنعه، كل هؤلاء الآفلين حواجز تمنع الإنسان أن يسأل عن ربنا، أول ما يبتعد عن الشهوات ويزيلها من قلبه ويزيلها من عقله ويتوقف عن التفكير فيها يبدأ يقول: أين ربنا أنا أريد أن أقرب من ربنا؟ أين هو طريق ربنا؟

إذًا {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي} جاءت بعد آيات الصيام، الإنسان يبدأ يسأل عندما يبتعد عن شهوات الدنيا، {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي} جاءت بعد: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} .

{لئن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي} إذًا هنا كان يعرف أن له ربًا {لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} قمة الافتقار جاءت بعد قمة التجرد من الدنيا وخلع كل شيء في الدنيا.

عِبادِي كُلُّكُمْ عارٍ، إلّا مَن كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ، وَأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي،
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٧٧ • [صحيح]

ثالثًا:- الدرجة الثالثة أن يرتقي في سلم اليقين: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ؛ توحيد الوِجهة والانطلاق.

إذًا: تخلّي عن الدنيا، قمة الافتقار، قمة الانطلاق.

نرى نفس الترتيب حدث لسيدنا موسي: {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[الأعراف:١٤٣] ينزّه الله عن كل نقص لم يعد يظن في الله أي نقص {سُبْحَانَكَ} ، {تُبْتُ إِلَيْكَ} مُفتقر لك يارب، {وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} ؛ الإنسان عندما ينصرف عن الدنيا ويفتقر إلى الله تصبح وجهته واحدة، لم يعد يلف ويدور.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} ؛ وجهة واحدة، انطلاق، لم أعد ألتفت لأحد ولم أعد أسأل: هل هذا واجب أم مباح أم مستحب؟ ينطلق إلى الله -عزَّ وجل- لا يلتفت في الطريق، مهما قابل من صِعاب هو مُنطلِق، لا يلتفت {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا} أي مائلًا عن كل شيء، أي شيء يفتنني عن ربنا لا أريده، أنا بعيد عنها، أي شيء سيبعدني عن ربنا أنا لا أريده، النبي صلى الله عليه وسلم الملابس فقط لما كان يصلي ويشعر أن هناك ثوبًا فقط ربما يشغله لحظات في الصلاة يخلعه لا يريده، الخيل التي عطّلت سيدنا سليمان يذبحها لا يريدها، أي شيء يبعدني عن ربنا لا أريده، أنا وِجهتي واحدة.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ} انتبه لكلمة {فَطَرَ}، تلاقي الفِطَر ، فِطرة إبراهيم الْتَقَت مع فطرة السماوات والأرض، الفطرة التي بداخل سيدنا إبراهيم التي حاولوا أن يُبدّلوها لسيدنا إبراهيم وفشلوا، وهم بدلوا فطرتهم {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .

إذًا هذه المراحل الثلاثة التي تنقل الإنسان من الركود إلى الانطلاق.

رقم واحد» **{لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}**، يساعدك على استشعار التدبر والتفكر؛ أن كل الدنيا زائلة، ترى منظر الوردة وهي في قمة الجمال، وترى الوردة وهي ورق متناثر مُلقى على الأرض تقول: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، أن ترى الإنسان، أو أجمل امرأة في العالم وهي في القبر، ترى أجمل سيارة ثم تراها بعد سنين،

حين ترى الحياة هكذا تقول: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، صاحب منصب كبير وهو نائم في فراش المرض مشلول لا يستطيع أن يتحرك {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، انظر إلى التغيرات التي تتم باستمرار في هذه الحياة {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، أين الذي قال {أنا ربكم الأعلى}؟!

أين الذين قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}؟ {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ}؟! أين هم؟ {أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}؟ ولو صوتًا خفيًا هل أحد يسمع لهم أي صوت؟ ولو حتى وسوسة؟ {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا} ؟

إذًا أول مرحلة من مراحل الانطلاق إلى الله هي مرحلة {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}.

رقم اثنان» قمة الافتقار، ليس لك في هذا الطريق إلا الله {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}.

رقم ثلاثة» بعدما يوجد تخلية وتحلية يأتي الانطلاق، لم تَعُد مترددًا {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} اعلم أنك عندما تنطلق في الطريق إلى الله الناس لن تتركك! اعلم أن هذا الطريق مليء بالعقبات، لا تعتقد أنك عندما وصلت أن الناس ستقول لك: ألف مبارك، الحمد لله على السلامة.. لا، لا، لا بد من وجود عقبات، ولا بد أن أناسًا ستقف أمامك، وناس تحاول أن تجادلك وتصرفك عن هذا الطريق، ويريدون أن ترجع مرة أخرى لركودهم.

لأن معنى أن شخصًا يسير في طريق الحق أن الباقين كلهم خطأ، وجود ناس متطهّرين علامة أن الباقي ليسوا من المتطهّرين، وجود شخص لا يأخذ رشوة علامة على أن الباقي سيء، وجود شخص يعمل خُلقًا طيبًا معناه أن الباقي سيء؛ لذلك {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فتكونون سواءً}[النساء:٨٩] ، هنا: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} .

{قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ} المراحل الثلاث جعلت سيدنا إبراهيم في النهاية يقول: {وَكَيْفَ أَخَافُ}، كيف نُزع هذا الخوف؟ بعد هذه الثلاث المراحل التي مر بها.. بعد جهاد.

نحن مشكلتنا نريد أن نصل إلى {وَكَيْفَ أَخَافُ} بدون أن نجاهد هذه المجاهدات، نريد الشعور بقمة اليقين والطمأنينة بدون المرور بالثلاث مراحل {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي..}، {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}، تريد فجأة أن تقول: {وَكَيْفَ أَخَافُ}، تريد أن تكون في قمة الطمأنينة واليقين... غير ممكن!!

لا بد من جهاد، سيدنا إبراهيم إلى آخر لحظة، الآيات في سورة البقرة بعدما يحاجّ النمرود يقول: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}[البقرة:٢٠٦] لا يتوقف أبدًا عن الترقي في درجات اليقين، أبدًا، إلى آخر لحظة، لا يمل أبدًا، سيدنا إبراهيم –عليه السلام–. انظر بعدما وقف في وجه النمرود يقول: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}، أنت يا إبراهيم الذي قلت للنمرود: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}، ولما قال لك: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} قلت له: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} !

لكن سيدنا إبراهيم ما زال يريد أن يترقَّى في درجات الإيمان، {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصب}[الشرح:٧] الإنسان لا يشبع من الإيمان أبدًا، يريد أن يترقَّى في درجات الإيمان، اليوم صلاة العشاء، غدًا صلاة الفجر تكون أفضل من صلاة العشاء، وصلاة العشاء غدًا تكون أفضل من عشاء اليوم، وتراويح السنة القادمة تكون أفضل من السنة الماضية، وقراءة القرآن تصبح أفضل، لا بد أن تترقَّى في مدارج الإيمان، مجاهدة، وبذل، وتفكُّر وتدبُّر، وتساؤلات، أسئلة كثيرة مثل سيدنا إبراهيم يسأل؛ لكي تصل إلى هذه المرتبة.

أسأل الله –عزَّ وجل– أن يستعملنا ولا يستبدلنا.. نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وجزاكم الله خيرًا.